الجسد الأنثوي ودلالته الرمزية في قراءات أنثروبولوجية متعددة

د. نورة قنيفة - جامعة أو البواقي- الجزائر

الملخص :

أن لكل إن قراءات عديدة لأبحاث أنثروبولوجية هامة جدا منها **بيار بورديو** في "هيمنته الذكورية"، **كاميل لاكوست دو جاردان** في "أمهات ضد نساء"، **سمية نعمان قسوس** في "بلا حشومة"، مريم بوزيد وقراءاتها للمرأة الترقية وغيرها من القراءات **عكس -لا تزال-** قوة معرفية أنثروبولوجية معمّقة من جهة، ومرجعية فكرية تحليلية هامة جدا من جهة أخرى كثيرا ما ساهمت في تحليلاتنا لموضوع المرأة ...

ولعل مجرد الحديث عمّا هو في اعتقادنا **"رد اعتبار"** علمي لباحثات قدّمن الكثير في مجتمعات محلية لا تزال تعيش وتتعايش مع الكثير من المتناقضات المجتمعية بفعل تأثير الثقافات الدخيلة في مقابل هيمنة معادلة الجنس/ المقدس على المخيال الاجتماعي، بل وترفض هذه المجتمعات الاعتراف الاجتماعي بها أو الخروج عنها مما يجعل من ممارسة أي اقتراب اجتماعي أنثروبولجي صعبا جدا لدرجة المغامرة ..

هي أيضا في اعتقادنا جرأة بحثية خصوصا في علاقتها بالجسد الأنثوي وما ارتبط به من طابوهات في ظل مقاومة شعبوية لكل ما يتعلق بطابو الجسد ومرجعياته المجتمعية المنبثقة من الشرف والحشمة والعيب والعار.. والتي تعكس خصوصية الجسد الذي يصعب تحديد هويته خارج إطار معالم المعادلة ، خصوصية على الرغم من تباين مفرداتها والتي منها: العذرية، الزواج، التنشئة الاجتماعية، المقدس، والمحرّمات.. إلاّ أنها تشير إلى ارتباط حيوي يربط المرأة كذات بالآخر من خلال المحدّد الزمكاني وفعل التفاعل الاجتماعي الدائم والمستمر مع المحيط الاجتماعي بحيثياته المختلفة..

ولعل الأصعب في كل هذا اعتماد تقنيات تتطلب كل أشكال الحضور لدراسة التراث اللامادي...

Abstract :

As In many reviews of very important anthropological researches among which those of Pierre Bourdieu in "His manhood domination", Camille Lacoste du Jardin in "Mothers against women", Soumaya Naamane Guessous in "Without shame", and Meriem Bouzid and her reviews of the Tuareg women and other reviews that had reflected and -still do- a powerful deep and very important analytical anthropological knowledge from one side ,and referential thoughts from the other side , that had participated in our analysis of the woman's subject.

Perhaps talking about what we believe to be a scientific return of esteem to researchers who gave a lot in our local societies , still live and cohabitate with many social inconsistencies due to the impact of exterior cultures face to the domination of gender/sacred equation on the social imagination , These societies even refuse its social recognition or abandon it, which makes any implementation or social anthropological approach very difficult and even an adventure.

Which we believe also to be a scientific enterprise as it is related to the female body and the taboos which goes with , in front of a popular resistance to anything to do with body taboos and its social references emanated from honor, shyness, shame, and dishonor …which reflects the particularity of the body and the difficulty to determine its identity outside parameters of equivalence, a particularity added to its varied words such :virginity, marriage, socialization , sacred, religious bans…But it indicates a vital relations that ties woman as an entity with the other ,through time determinants and social permanent interaction with the social environment and its different aspects, and may be the at most difficulty of all of that resides in the use and the techniques that require all forms of presence to study immaterial heritage…

تمهيد:

إن الاهتمام بالجسد ليس ضاربا في القدم بشكل كبير جدا، حتى وإن تمّ الاهتمام به قديما طبيا لكنه لم يشمل تمظهرات وأهمية العناية في إبراز صور تأثير الجسد على الفرد والعلاقة الترابطية بينه وبين المجتمع الذي يأخذ ويضيف للجسد إلاّ في بعض الإشارات التي جاءت بصورة الاهتمام الثانوي والخلط بين الجسم والجسد..(1)

لقد شغل الجسد الإنساني موقعا متميزا في جدل النظرية الاجتماعية على مدار العقدين الأخيرين، وذلك من خلال الأطروحات والمناقشات الواسعة التي قدمتها المداخل المتنوعة في النظرية الاجتماعية، فثمة احتفاء بالجسد باعتباره مفهوما نابضا من جهة وحاضرا فعليا في إطار الحداثة الراهنة من جهة أخرى، فهو يحتل مكانة عالية في تلك الحداثة، كما أنه يمثل مفتاحا مهما في تفسيراتها، فنحن نحتاج فقط أن نتأمل تلك الحقائق شديدة الوضوح المتعلقة بالخبرة الجسدية لنكون على وعي بالسمة الحقيقية للحياة المعاصرة. (2)

ولئن أصبحت البحوث الأنثروبولوجيّة والسّوسيولوجيّة المتعلّقة بالجسد منذ أوائل السّبعينات من القرن الماضي بكلّ من أمريكا وكندا وأوروبا الشّماليّة والغربيّة تعدّ من المداخل الكبرى في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، فإنّ هذا المجال ما يزال في بداياته في المجتمعات العربيّة، وقد يكون للتّحوّلات الاجتماعيّة والسّياسيّة الكبرى التي تشهدها أغلب المجتمعات العربيّة في الوقت الرّاهن أثر بالغ في دفع وتوجيه الانسانيّات عموما والسّوسيولوجيا والأنثروبولوجيا على وجه الخصوص إلى البحث في موضوع الجسد الذي كان وما يزال من المواضيع المغيّبة، والمنسيّة، والمسكوت عنها في هذه المنطقة من العالم..(3)

إنه وبالرغم من بلوغ النوع الإنساني إلى ما يسمى طور العصرية ومراحل الإرتقاء ودخوله إلى الألفية الثالثة، مازال موضوع وكيان الجسد يشكل علامة استفهام وجملة مشفّرة لا يمكن دخول تابوهاتها إلاّ من اهتم بشكل كبير بهذا الشيء الملاصق لذواتنا وشخصياتنا، ولنا معرفة ربما كبيرة بظاهره، لكننا لا نعرف دواخله بشكل منطقي ..

إن طبيعة الجسد باعتباره كيانا أوليا متعدد الدلالات والوظائف يخترق بإلحاح مجموعة من المباحث والعلوم من طب إلى علم الإجتماع، علم النفس، إلى علم الديانات. وإذا كان هذا الجسد مفهوما ثقافيا، فإن قابلة التفكير الفلسفي النظري والتحليل العلمي الثقافي في الآن نفسه هو ما يؤكد خصوبة البحث دون السقوط في أي نظرة تجعل منه جسدا مدنسا يقطن في المرتبة الدونية دون الإنسان.

هكذا يصبح الجسد في علاقة وثيقة مع مفهوم الذات كموضوع للبحث مع الفلسفة الوجودية المعاصرة فتحول من اللاّمرئي إلى المرئي ومن الغياب إلى الحضور وتم إخراجه من الهامشية إلى المتن واستجلابه من اللاوعي إلى الوعي ومن مجال المسكوت عنه إلى مجال قول الحقيقة مع الفلسفة الفينومينولوجية..(4)

كما تطور فهم الجسد في الدراسات الثقافية من خلال الإعتراف بأنه مقر المعنى ومركزه ويدل على ذلك توصيف Umberto Eco للجسد بأنه "آلة للتواصل". فالجسد ليس مجرد شيء موجود كحقيقة من حقائق الطبيعة إنما هو جزء من الأجزاء المندمجة في كيان الثقافة. ويّعد الجسد موقعا أساسيا يتم فيه التعبير والإفصاح عن الثقافة والهوية الثقافية.. ومن خلال الجسد فقط يتمكن الأفراد من التواؤم مع التوقعات المفروضة عليها أو مقاومتها.(5)

ولعل الوضع أكثر "صعوبة" حين يتم تناول الجسد الأنثوي أنثروبولوجيا لاسيما في المجتمع العربي الذي تحكمه الكثير من الأبعاد الثقافية المؤسسة للهوية الاجتماعية ، والمحددة للكثير من الأدوار والمراكز التي تجعل من البحث الأنثروبولوجي حول الجسد الأنثوي بحث من نوع خاص خصوصا في علاقته بالمخيال الاجتماعي والممارسات الثقافية من طقوس وأمثال شعبية وطابوهات مجتمعية، ولعله يصبح أثر صعوبة حين يُنجز من طرف باحثات يتطلب استمرارية تواجدهن في الفضاء العام ليبقى البحث حول الجسد الأنثوي من طرف الذات الباحثة أكثر الأنواع خصوبة وثراء في اعتقادنا لاسيما في بعديه الأساسيين الصدق والجرأة البحثية..

إن ما نحاول تقديمه في هذه الورقة العلمية هو جزء بسيط من قراءات عديدة جدا حول الجسد الأنثوي ساهمت

باحثات جزائريات وعربيات -رغم قلة عددهن- في التأسيس العلمي الحقيقي لها، لتتحول إلى مرجعيات فكرية هامة جدا لمن يبحث في ثنائية المرأة/الجسد لاسيما وأن أغلبها طبعته جرأة الطرح وواقعية المعطى ومنطقية التحليل..

1.البداية ...سؤال الممارسة السوسيو- أنثروبولوجية في الجزائر:

منذ ما يزيد على قرن من الزمان، عندما ابتدأت العلوم الإنسانية مسيرتها، كان من الممكن تعريف الإثنوغرافيا بكونها السوسيولوجيا الخارجية، سوسيولوجيا الآخرين، والحال أن هذه السوسيولوجيا ذات الاستعمال الخارجي قد سهّلت بشكل كبير في ما بعد معرفة مجتمعاتنا الخاصة لأنها منذ البداية استوجبت الاغتراب، أي الصفاء والوضوح..

لقد تحدثت "كلودين شولي" عن ثلاث ممارسات أنثروبولوجية أساسية هي:

- الأنثربولوجيا المهمّشة: حيث تقترن دراسة المجتمع الجزائري برائدين معاصرين هما **جاك بيرك وبيار بورديو**، لم يكونا متشابهين سوى في كونهما لم يوصفا على أنهما "أنثروبولوجيان"، وكانت هذه الكلمة قليلة التداول في الحقل الفرنسي (بل كان هناك حديث عن الاثنوغرافيا لوصف الممارسات الاجتماعية، والأثنولوجيا لمقارنة و تفسير هذه الممارسات)، ..وكان المصطلح المتفق حوله بنوع من الإجماع والمستمد من التقليد الدوركايمي هو "سوسيولوجيا" وما عداه تمّ رفضه لكونه مرتبط بالسياسة الاستعمارية... وقد أنجزت دراسات جادة ومؤسسة في هذه المرحلة، وتكونت أقطاب للتفكير في ذلك حتى وإن كانت هذه الأعمال-الدراسات- لم تعرّف بشكل لائق، ولم تنشر بشكل كاف..

- الأنثروبولوجيا الضمنية: لقد أدرك السوسيولوجيون في هذه المرحلة أهمية المقاربات التي تهدف إلى الفهم، العمل المتعدد الاختصاصات، والاستماع الدقيق للثقافة وهي تتشكل، وعرفوا كيف يطالبون بـ"أنثروبولوجيا" كاختصاص ضروري لمقاربة المجتمع موضوع البحث. وهذا ما تبلور فعلا عن طريق الإبداع..

- الأنثربولوجيا الممارسة: يجب تجديد قراءة الأعمال الكلاسيكية التي أنتجها الجزائريون، عن طريق الترجمة إذا اقتضى الأمر ذلك، وإعادة الاعتبار للمواضيع التي يمكن دراستها..

لتؤكد بعد هذه المسيرة العلمية البحثية أن الأنثروبولوجيا ليست البحث في السمات الثقافية وإنما في فهم نظام الرموز المادية والثقافية الذي يحاول الجزائريون اليوم في ظله تشكيل حياتهم بإيجاد معنى له. وسواء سُمي هذا البحث أنثروبولوجيا أو سوسيولوجيا فذلك لا يكتسي في النهاية أهمية كبيرة. ولكن الأهم أن تجعلها حوصلة المعارف "في صلب قراءتها ضمن الوثائق المحصلة..(6)"

2 : أنثروبولوجيا الجسد الأنثوي و رهان البحث في الخاص

اتخذت الكتابات الأنثروبولوجية عن المجتمعات الإسلامية مسارا تاريخيا تتضح فيه التطورات الهامة التي حدثت في علم الأنثروبولوجيا منذ نشأته، فالكتابات الأنثروبولوجية المبكّرة عنها قد مالت إلى تجاهل النساء إلى حد بعيد ويرجع هذا جزئيا إلى التحيّز الذكوري الذي اتسم به تاريخ فروع المعرفة الأكاديمية عموما، كما يرجع جزئيا إلى غياب عالمات الأنثروبولوجيا من النساء العاملات في البحوث الميدانية. وقد شهد هذا الاتجاه إصلاحا تدريجيا مع دخول الباحثات الأنثروبولوجيات إلى هذا الفرع المعرفي، وبدء اهتمامهن بأنشطة النساء وحياتهن بطريقة غير مسبوقة المثال. عندها بدأ ظهور تقليد التوثيق الإثنوغرافي لحياة النساء اللاتي يعشن في ظل ثقافات متنوعة، وكانت أغلبها كتابات تصف وجود النساء في مجتمعات المسلمين في الريف والحضر..

لكن"أنثروبولوجيا النساء" لم تظهر كفرع مستقل قبل سبعينات القرن العشرين، حيث أدخلت الجندر في دراسات الظواهر الاجتماعية والثقافية كمفهوم تحليلي بطريقة غيّرت هذا الفرع تغييرا جوهريا.. ومن أهم الإسهامات التي أتى بها هذا التطور إلى علم الأنثروبولوجيا كفرع معرفي الحجة القائلة بأن التركيز التحليلي على الجندر لا يقدم مجرد وصف"لحياة النساء" لكنه يساعد على توضيح كيفية إنتاج علاقات اللاّمساواة الاجتماعية

عموما، ويلقي الضوء على كيفية استمرارية وإعادة إنتاج المؤسسات العامة المعنية بالسياسات وكيان الدولة والإنتاج الاقتصادي، وهي المؤسسات التي تعرضت فيها النساء للتهميش عبر التاريخ. ويلاحظ أن هذه الكتابات قد صوّرت الجندر كفئة تعتمد على صلتها بغيرها، لا كشيء يتعلق بحياة النساء وحدهن، وبذلك استخدمت اللاّمساواة بين النساء والرجال كعدسة تكشف كيفية عمل الأنساق الاجتماعية الاقتصادية والثقافية التي نشأت في ظروف تاريخية معينة..(7)

ولعل أكثر التفسيرات الجندرية أهمية ما ارتبط بالبعدين الاجتماعي والثقافي إذ تؤكد هذه التفسيرات على التنميطات الشمولية للثقافة، واللغة، والواقع اليومي بموجب المفاهيم المشتقة من الخبرة الذكورية والأنثوية، وبموجب تنميطات الذكورة والأنوثة، والعمل التفاعلي والمفاهيمي الذي نقوم به من أجل الحفاظ على تلك التنميطات، والطرق التي يعمل بها العمل الجمعي على تحديد تلك الفضاءات والخصائص الاجتماعية والنفسية للرجال والنساء. إن هذه التفسيرات تؤكد بأن خبرات التعلم الاجتماعي تصهر الأفراد في أدوار منفصلة وفضاءات مؤسسية للذكورة والأنوثة. ومن هنا فإن المرأة تختلف من حيث قيمها واهتماماتها وحسها بالهوية ، والعمليات العامة للوعي، ورعاية الذات وتستحضر رؤية مختلفة لبناء الواقع الاجتماعي.(8)

في نفس السياق، يحاول الخطاب السوسيولوجي والانثروبولوجي أن يعطي الأولوية للطرق التي يصبح من خلالها الجسد موضوعا للخطاب الرمزي . فالمقاربة السوسيو انثروبولوجية لا تتعاطى مع الجسد باعتباره كيانا عضويا فقط وإنما باعتباره بنية اجتماعية ثقافية وهو ما يعرف بصورة الجسد والتي يعرفها معجم التراث الأمريكي بأنها التصور الذاتي للفرد عن مظهره العضوي مرتكزا في هذا التصور على ملاحظته الذاتية ووجهة نظر الآخرين. وفي التراث العلمي تعد صورة الجسد مفهوما متعدد الأبعاد يتضمن الإدراك الذاتي للفرد واتجاهاته حيال مظهره العضوي ويشمل ايضا الابعاد المعرفية والسلوكية والوجدانية والتصورية ...(9)

3 : الجسد الأنثوي من الفضاء الخاص إلى البحث السوسيوأنثروبولوجي

ساد اعتقاد لفترات طويلة أن الجسد لا يستحق أن يكون موضوعا سوسيولوجيا لأنه ظاهرة توجد خارج الاجتماعي وتستعصي على التحليل السوسيولوجي، وعليه فقد كان حضوره لا يتجاوز الحضور المضمر أو كما قال **ميشيل برتيلو** "مادة سوسيولوجية ذات خسوفات"، ولأنه منتوج ثقافي يبنى اجتماعيا من خلال إندماجه مع الآخرين وانخراطه في المجال الرمزي فقد سجّل حضوره القوي كموضوع للسوسيولوجيا لاعتباره أداة كشف وتحليل لمختلف البنيات والعلاقات الاجتماعية والتمثلات، ويظهر ذلك جليا في أعمال **ميشيل فوكو** و **بيير بورديو**، ليتجاوز الجسد ذلك المفهوم الشائع، فلم يعد تلك الكتلة اللحمية بخصائصها البيولوجية كما صوره لنا علم التشريح والطب والجراحة لقرون طويلة، بل قبل ذلك هو شبكة من الرموز والطقوس ومرصدا لمختلف التمثلات والتصورات التي تؤسس للمخيال الاجتماعي ..(10)

هذا ولا يزال تناول صورة الجسد الأنثوي محدودة الطرح أنثروبولوجيا وسوسيولوجيا في اعتقادنا في مجتمعاتنا المحلية لاسيما الخصبة منها أو بالأحرى الأقل تأثرا بالتغييرات الاجتماعية والأكثر حفاظا على خصوصيتها الثقافية مثل المجتمعات المحلية الصحراوية، بل إن البحث في هذا المجال ظلّ ولا يزال مغامرة حقيقية كثيرا ما تمّ إنهاء التفكير في الخوض فيها مبكرا لارتباطها بمقدسات وممنوعات وطابوهات مقولبة اجتماعيا وثقافيا ودينيا أيضا جعلت من الجسد الأنثوي أكثر المجالات البحثية الأنثروبولوجية صعوبة..

فالحديث عن الجسد الأنثوي مثلا، يقودنا بالضرورة إلى طرح الكثير من المسائل الاجتماعية والتي غالبا ما تُصنف ضمن دائرة المسكوت عنها أو الطابوهات وأبرز نموذج مسألة الصحة الجسدية والتي تبين من خلال قراءة بحثية سابقة أن "العناية بالجسد قبل الزواج يعني الحفاظ على جماله، رونقه، نشاطه.. وليس صحته.. فهاجس الفتاة هو قدرات الجسد على نيل إعجاب الرجل والظفر به كزوج، بمعنى إختزال صحة الجسد في بعده الجنسي أولا وما يمكن أن يقدّمه هذا الجسد من أدوار بعد مؤسسة الزواج(الجسد الوليمة، الإنجاب، الطبخ، التنظيف، تربية الأولاد...) وكثيرا ما تتجاهل الفتيات صوت الجسد

وألمه خوفا من اكتشاف مرض يكون عائقا أمام زواجها، فكثير من الفتيات من يحملن مرضا قبل الزواج ويخفيهن على أزواجهن اعتقادا منهن أن قيمتها في جسدها، بل يتوقفن في بعض الأحيان عن العلاج خوفا من زوجها الذي سيقصيها إذا كشف خلل في الجسد وما يلحقه هذا الخلل من ضرر مادي وضرر على مستوى الوظائف الجنسية والمادية..(11)

يضاف إلى ما سبق الكثير من الظواهر المجتمعية الثقافية المرتبطة بالتصور العام للجسد الأنثوي منها نظام الزواج ومختلف الطقوس الممارسة حميميا وأسريا واجتماعيا، والذي لا يزال محل اهتمام الكثير من الأنثروبولوجيين رغم صعوبة الخوض فيه، ولعل ما قدّمته دراسة سابقة، وكتكملة لما سبق طرحه حول صورة الجسد الأنثوي، حول الفتاة وطقس الزفاف في المجتمع الحساني أكّد قوة تأثير المرجعية الثقافية المحلية بكل ما تتضمنه من عادات وتقاليد وأعراف ومعتقدات وأساطير وقيم دينية في تحديد هوية الفتاة الحسانية من جهة، وصعوبة إنجاز البحث ميدانيا في مجتمع محلي له خصوصيته الثقافية والدينية لاسيما وأن محور الدراسة هو الجنسانية في بعدها الممارساتي بكل مستوياته الاجتماعية والثقافية، وبكل أبعادها المادية والرمزية مثل العذرية ، ليلة الدخلة..(12)

وعن علاقة الجسد بالجماليات اتضح من خلال دراسة أنثروبولوجية أن سر بحث الأنثى عن الجمال، ليس إلا غاية تتجلى أبعادها فيما هو اجتماعي أنثروبولوجي وما هو ذاتي نفسي، وكذلك فردي وجماعي، ومرسوم في منظومة المفاهيم وآليات التفكير، ومعطي في الواقع.. وهو رغبة تابعة لنرجسية المرأة وحبها لذاتها وتحقيقها لها ورضاها عنها كما تعتبره تأشيرتها لاقتحام الفضاء الاجتماعي العام، والتجدّر فيه من خلال بلورة شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تسهّل عليها عمليات الاتصال وتحقيق الأحلام. وهو كذلك رغبة قوية ناجمة عن الاعتقاد بأنّها الوسيلة الأكثر جدوى في إيجاد الطرف الآخر وضمان حياة عاطفية ناجحة معه مكلّلة بالزواج... ذلك أن الأنثى في التراث هي : الجميلة، الفاتنة، المعشوقة، المغرية، الملكة، الحلوة، الزوجة المثالية... فالمرأة على مرّ السنين في الذهنية الشعبية، هي المحاسن الجسدية وصورة الإغرائية ، لذلك، ومن المعتقدات الراسخة في هذا المخيال، أن أي نقص في تلك المواصفات قد يرمي بها في سلة التهميش والإقصاء.. وأنها

تقوم ، من خلال عمليات التثاقف، بتعديل تمثلاتها الشخصية عن العناية بجسدها وفق النماذج الموجودة في وسطها المعيشي الجديد. فالجمال بالنسبة لها واقع في الجسد والنفس، وهو بالدرجة الأولى فكرة تتمثل، ثم تليها بعد ذلك قواعد تطبق بنص المعرفة الثقافية والحضارية والعقائدية والاجتماعية. كما أنه مسألة ذوق وليس نمطا جامدا، غير قابل للتغيير وإعادة التشكيل..فتمثلات الفتاة لمعايير الجمال والتجمل، هي تمثلات نابعة من صميم المجتمع الباحث أبدا عن صور الجمال ومظاهره بناء على أرض الجسد الخصبة، التي تعتبر ورشة لعمليات وممارسات الزينة...(13)

نصل إذا إلى التأكيد على أن اختيارنا لجزئيات بسيطة من دراسات أنثروبولوجية هامة جدا حول أبعاد مختلفة مؤطرة لماهية الجسد الأنثوي غرضه الأساسي التنويه إلى أهمية هذه القراءات في التعريف بحقائق اجتماعية ثقافية كثيرا ما تم حجبها وتأطيرها في مجال المسكوت عنه، ولعل الأهمية الكبرى تكمن بالخصوص في ما تنتجه اجتماعيا لاسيما في بعدها الإنساني الأنثوي مثلما تبيّن لنا في دراستنا حول العنف الممارس على المرأة والذي كان مصدره الأساسي جملة ممارسات ثقافية تقليدية كرست التفوق الذكوري والدونية الأنثوية وجعلت من الجسد محورا أساسيا للاختلاف و التميز..(14)

4 : بيار بورديو و أنثروبولوجيا الجسد ...الهيمنة الذكورية نموذجا

في نفس السياق، نسجل أهم دراسة بوردية حول الجسد والمتمثلة في "الهيمنة الذكورية" والتي حاول فيها بورديو طرح رؤاه النظرية متخذا من"قبائل الجزائر" نموذجا لدراسته، ساعياً لتوضيح أنّ الاختلافات الجسدية/البيولوجية بين الذكور والإناث لا تشتغل إلا كتأكيد بل تبرير للاختلاف الطبيعي بين النوعين، بعدها يأتي دور الآليات التاريخية لتؤيد بنيات التقسيم الجنسي الذي رسّخه النظام المجتمعي.

تقدّم الهيمنة الذكورية التي تشيع ممارستها على الصعيد الكوني باعتبارها ظاهرة طبيعية، متجذرة في اختلاف الجنسين غير أن هذه الهيمنة في الواقع هي نتيجة بناء تاريخي مقام انطلاقا من عناصر"متماثلة"، على هذا النحو نفكر هيمنة مقولات الفكر التي تعتبر هي

نفسها نتيجة لهذه الهيمنة على قاعدة الاختلاف الفيزيولوجي الملاحظ، يقوم نظام من التصنيف كوني يقابل في جميع المجالات بين الأعلى والأسفل، الحار والبارد، النشيط والسلبي، الواجل والموجل، الثمين والزهيد، القوي والضعيف.

ولبناء هذه "الأركيولوجيا الموضوعية في لا شعورنا"، يستعمل بيير بورديو التقليد القبائلي الذي يعلن عن نفسه باعتباره" رؤية فالونرجسية" "كسمولوجيا أندرو مركزية" مشتركة بين سائر مجتمعات البحر الأبيض المتوسط ومن ثمة يبين بالتفاصيل كيف يسقط مجتمع ما تشغيل رأسماله الرمزي (الشرف) على التقابل مذكر/مؤنث بإعادة تفسير معطيات الحياة الاجتماعية والرمزية بحسب هذا التقابل الأولي.

إن سلطة الرجال وشرفهم هما اللذان يقتضيان أن تعمل النساء في المنزل، وهذا يجد تبريره في كونهن ضعيفات غير قادرات على التصدي للأعداء: "أكيد أن الطبيعة صنعت أشياء ...وتكمن أصالة بورديو هنا في إظهار أولية قلب العلاقة بين الأسباب والنتائج" التي أدت إلى تقديم هذا البناء الاجتماعي كأنه طبيعي: إن الاختلافات المرئية بين الجسدين الذكوري والأنثوي تغذو هي ضامن القيم المصنوعة غير القابل للنقاش. تصور رهيب ما دام "يشرعن علاقة الهيمنة بتسجيلها في طبيعة بيولوجية هي بدورها بناء اجتماعي مطبع".

في الواقع، يعتبر هذا العمل في بناء الشأن الرمزي تشغيلا لعنف رمزي وكأنه عنف طبيعي، ذلك أنه يطبع النساء والرجال على حد سواء. كذا تجد النساء أنفسهم تحكين وضعيتهن استنادا إلى معايير الإيديولوجيا الذكورية المهينة..(15)

ولأجل تفكيك المعتقد الاجتماعي والثقافي في سمته المفارقة وكذلك السيرورات المسؤولة عن تحول التاريخ إلى "طبيعة" ثابتة وتحويل الاعتباطية الثقافية إلى "طبيعية" تسلح بأدوات الإيثنولوجيا كخيار ميتودولوجي، بين بورديو أن الاختلافات بين المذكر والمؤنث مبدأ اعتباطي وطارئ، فالثقافة هي التي اعتمدت على تذكير الجسد لدى المذكر وتأنيثه لدى الأنثى كعملية ممتدة ومستمرة لاستبدان (somatisation) لا يوجد مفصولا عن عملية ترويض للأجساد وإلزامها مجموعة من الاستعدادات التي تناسب الذكورة والأنوثة في شكل يقترب من الدخول في لعبة اجتماعية محددة وصادقت على هذا التجلي

مجموعة من الطقوس فيما يشبه الولادة الجديدة، لذا فالمقاربة الجديرة بدراسة البعد الرمزي للهيمنة سوسيولوجيا لن توفرها سوى أدوات الإيثنولوجيا بامتيازات مضاعفة..(16)

5- أمهات ضد نساء..بلا حشومة ...المجتمع الترقي ..بدايات التأسيس الأنثوي للممارسة الأنثروبولوجية :

إن اعتماد الملاحظة بالمشاركة والعمل الميداني منهج يتطلب من الباحثة الأنثروبولوجية أن تعايش من تبحث حياتهم معايشة وثيقة وحميمة، لتجمع البيانات التي تحتاجها دراستها من ملاحظاتها للحياة اليومية لمن تدرس حياتهم. وكثيرا ما نعتقد أن اقتراب الباحثة الأنثروبولوجية اقترابا وثيقا ممن تدرسهم يمنحها قدرة مميّزة على التقاط دقائق حياتهم، ومعرفة ما إذا كانوا يعيشون حياة مليئة أم فارغة، خشنة أم ناعمة. وبعض الباحثات الأنثروبولوجيات اللاتي سعين إلى نقل صورة تمثيلية للنساء استخدمن هذه الدعوى الأنثروبولوجية للدفاع عن الكتابة بأسلوب إثنوغرافي يسجل بأمانة الطابع المركب للحياة التي تعيشها هؤلاء النساء، وفي نفس الوقت يرفض حبس روايتهن في إطار الفئات الأنثروبولوجية التي تختزل هذا الطابع المركب في تعميمات بسيطة..(17)

في محاولة تفكيكية لعالم المرأة والبحث في مظاهر القمع الممارس على الجسد الأنثوي في علاقته بنظام القرابة والتقاليد والتي اعتبرتها أكثر صلة بهذه الممارسات من تأثير المسألة الدينية.. انطلقت **دو جاردان** من تساؤل حول تأثير الحياة التقليدية لاسيما في ظل التغيرات العميقة التي يعرفها المجتمع، وقد اعتمدت مجتمع بحث اعتبرته حميميا بالنسبة لها وهو منطقة القبائل، على اعتبار معرفتها به وقراءاتها للعديد من الدراسات المغاربية لإثنولوجيين، سوسيولوجيين، مؤرخون علماء الاجتماع،ونفسانيين والذين رسموا من خلال أبحاثهم صورة نظام إيديولوجي اجتماعي، والذي حتى وإن أثرت عليه الحداثة، لا يزال يحبس الأفراد في أماكن وأدوار يعتمد عليها استقرار المجتمعات المحلية، الأسر، القرى والجماعات الدينية. وأنها تشير في النهاية إلى حالة من التوتر بين التضامن الجماعي والتطلعات الفردية.

لقد أكدت من خلال نموذج معطى (احتفالية زواج) على أن البعد الرمزي المتجسّد في الالتزام بالطقوس في المجتمع الجزائري لا تزال له الأهمية الكبرى، فهو يطبع أفراد المجتمع بطابع موحد، ويشكل أساس علاقة الذات الجزائرية بالمعطى الاجتماعي الواقعي، والتي (أي الذات) تتلقى المعرفة عن طريق الطقوس بأساليب سرية يكتنفها الغموض، وبهالة سحرية جذابة توحد معارف الجماعة مثلما لاحظت.. وأن عذرية الجسد في بعديها الرمزي والمادي جد مثمنة في جميع الميادين: الاجتماعية، الثقافية، والدينية، وبالأخص في الميدان الاجتماعي ما دامت عذرية الفتيات الشابات الملاحظة والمصرّح بها أثناء الزواج هي شغل وعرض كل العائلة، ثم ثقافيا وإيديولوجيا وحتى دينيا ما دامت نفس هذه العذرية تأخذ قيمة تميّز ترقى بهؤلاء الفتيات إلى الطهارة النموذجية...(18)

في نفس السياق، وفي محاولة اقترابيه لقضية الجنس في المجتمع المغربي، على اعتبار أنها من القضايا المسكوت عنها، ومن منطلق احتواء العنوان على كلمة "حشومة" التي تعني بالدارجة المغربية الخجل، العيب، العار، مسبوقة بأداة نفي ما يعني أن الباحثة المغربية **سمية نعمان جسوس** مقبلة على طرح ما يُعد لدى العوام عيبا وعارا معلنة بهذا منذ البداية خروجها عن هذا النسق، ولعل الانطلاقة كانت من فضاء البيت المغلق الذي حاولت تسليط الضوء فيه على دونية البنت وسط العائلة منذ ولادتها مستعرضة السلط التي تخضع لها(سلطة الأب، الجد، الأم، الأخ...) المتزايدة بوصولها المراهقة التي يتحول فيها جسدها إلى ملك عام للعائلة وجب عليها الحفاظ عليه.. ثم طرحها لمسألة الزواج على اعتبار أنه فعل اجتماعي وحياة يومية من خلاله نبشت في التقاليد الملازمة للزواج والتحول من زوجة إلى أم وما يستتبعه من أدوار جديدة لدى المرأة وقبل كل هذا نظرة النساء للعلاقة الزوجية التي اعتبرتها إحدى المستجوبات "ضربا من ضروب الشركة التعاقدية، فالمرأة تمنح الرجل قوة عملها ودرايتها وقدرتها على الإنجاب، كما تمنحه جسدها، وتحصل في مقابل ذلك كله على المأوى والطعام وعلى وضع اجتماعي هو وضع الزوجة، بالإضافة إلى طرحها لجملة ممارسات طقسية مرتبطة بالعذرية وتصور النساء للجنس والحياة الجنسية والزواج وليلة الزفاف ..

ومن الأسئلة التي سعت هذه الدراسة إلى الإجابة عنها كذلك النظرة أو التصور الذي يعطى للعلاقة الجنسية أو بالأحرى الوظائف والأدوار التي قد تلعبها ..كما سعت الباحثة إلى تناول الموضوع من كافة الزوايا مما دفعها إلى البحث في العقلية الخرافية فتوقفت عند جملة من الظواهر المترسخة في اللّاوعي الجمعي كالسحر، التقاف، الوشم والأدوار التي تلعبها في أوساط المجتمع.(19)

ليستمر البحث في فضاء من نوع خاص، ناذرا ما تمّ الاقتراب منه لخصوصيته الجغرافية قبل الثقافية الصعبة جدا و التي تتطلب التواجد القوي.. نتحدث عن المجتمع الترقي والقراءات الانثروبولوجية المتعددة **لمريم بوزيد** لاسيما ما ارتبط بالجسد المؤنث بدءا بالزواج الذي يعتبر موضوعا شائكا لدى طوارق التاسيلي وما يحمله من تصورات وقيم ومعاني ففيها يلقى الضوء على محور الجدات ومن ثم محور كل قبيلة بالإضافة إلى الإنجاب لاسيما إنجاب الذكر ..

إن ما قدمته الباحثة من قراءات متعددة جدا حول مجتمع محلي جزائري نعتبره بصمة علمية أنثروبولوجية خاصة جدا خصوصا وأنها اعتمدت منهجا بحثيا خاصا انطلقت فيه من مبدأ الترابطية أي النظر إلى العلاقات بين الأشياء، رؤية الأشياء في سياقها، استبصار الروابط التي تربط الأشياء جميعا معا، الرجوع إلى الوراء من أجل رؤية الصورة الكبرى بل أيضا العمل والحياة معا لتدمج تفاصيل الحياة اليومية لتحليل داخلي لبعض من أوجه الثقافة المدروسة كالطقوس والشعائر الاحتفالية.(20)

ولعل أبرز دراسة أنثروبولوجية لنفس الباحثة تلك المعنونة ب: " **تَنْ كِيلْ سَبَّيْبَه**"، تناولت فيها بالبحث والتحليل ظاهرة شعيرة السبّيبة باعتبارها ممارسة طقوسية قديمة جدا، ظلت تُمَارَسُ من قبل سكّان حيّين كبيرين يمثّلان قسما هامّا من سكّان جانت المتميزة بثراء ممارساتها الثقافية وبطبيعة مجتمعها المحافظ على تقاليده الماديّة واللامادّية...ولعل أهم جزئية مرتبطة بالجسد تناول الباحثة مختلف الطقوس الأسرية وعتبات الانتقال إذ لا يزال المجتمع المدروس يعوّل في كثير من قضايا التّنشئة الاجتماعيّة على مختلف الطقوس والشّعائر التي ترتبط بدورة الحياة والموت، كما تعمل هذه الطقوس على نقل واستمراريّة الهويّة الجماعيّة

للفرد من خلال التّأكيد عليها أثناء كلّ طقس لعل أبرزها طقس البلوغ الاجتماعي ومختلف الممارسات التقليدية المرتبطة بالجسد وطقس ما بعد العدّة.. بالإضافة إلى انصهار كل الطقوس في احتفالية سببية شعيرة حسب الباحثة والتي تمثّل خصوصيّة المجتمع الجانتي وفق مختلف المحاذير من الفوضى والإخلال بالنظام الأول للمجتمع وفق نمط تأسيسه منذ البداية: البلوغ، طقوس المظهر والجسد للجنسين، العلاقات بين مختلف فئات السنّ ودلالات الاحترام، أهميّة النساء المسنّات في المجتمع ورمزيّة مكانتهنّ رفقة مختلف الطبول المدويّة بالواحة،،، بناء الهويّة الفردية وعلاقاتها بالهويّة الجماعيّة وهذا الشّأن العظيم الذي يتحقّق بواسطة طقوس الانتقال تلك، والأهمّ من كلّ ذلك العلاقات التي تحكم القصور فيما بينها، لاسيّما المحتفلين من القصور ..(21)

خـــــاتمة :

سيظل البحث في ثنائية المرأة/الجسد أكثر المجالات البحثية أهمية لقدرته على تقديم الوجه الأخر أو الخفي، لعل إنجازه من طرف باحثات له القيمة العلمية الإنسانية الأكثر استحقاقا لأن الذات الباحثة أكثر عطاءا وأكثر إصرارا على تجاوز عقبات اجتماعية ثقافية قولبت المجال البحثي بمعطيات محدودة وسمحت للآخر الغريب أن يقدم طروحاته وفق أيديولوجيا التفوق والتسلط والتخلف..

لنؤكد في النهاية على أهمية القراءات العلمية الإنسانية للجسد الأنثوي المسجّلة بأنامل أنثوية عربية حاولت قدر المستطاع تقديم الحقيقة في مستوياتها المتعدّدة وكسر طابوهات كبلت -ولا تزال- البحث حول الجسد الأنثوي.

المراجع المعتمدة:

1. مازن مرسول محمد: حفريات في الجسد المقموع مقاربة سوسيولوجية ثقافية، دار الأمان الرباط، ط1، 2015
2. حسني إبراهيم عبد العظيم: صورة الجسد الأنثوي في المعتقد الشعبي:رؤية سوسيو-أنثروبولوجية، مجلة الموروث الشعبي الإلكترونية على: www.bahrainanthropology.blogspot.com
3. حسني إبراهيم عبد العظيم: صورة الجسد الأنثوي في المعتقد الشعبي: رؤية سوسيو-أنثروبولوجية، مجلة الموروث الشعبي الإلكترونية على: www.bahrainanthropology.blogspot.com
4. بوشريط نعيمة: نظرية فينومينولوجيا الجسد عند ميرلو بونتي دراسة تحليلية، مذكرو ماجستير غير منشورة، قسم الفلسفة،جامعة وهران، 2011-2012، ص2
5. أندرو إدجار وبيتر سيد جويك: موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة هناء الجوهري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، ط 2، 2014، ص 261
6. كلودين شولي: أنثربولوجيا و/أو سوسيولوجيا؟ إلتفاتة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين على: https://insaniyat.revues.org/7594
7. الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) على:

sjoseph.ucdavis.edu/ewic/ewic-arabic-translation/all-files/anthropology.pdf

8. محمد عبد الكريم الحوراني، لبنى مخلد عطاء الله العضايلة: تحديات الهوية الجندرية لدى رقيبات السير في المجتمع الأردني على: http://repository.nauss.edu.sa
9. حسني إبراهيم عبد العظيم، نفس المرجع السابق ذكره
10. مريم صالح بوشارب: سوسيولوجيا الجسد الأنثوي والوعي الصحي لدى المرأة أية علاقة، ورقة علمية قدمت في الملتقى الوطني حول الصحة العامة والسلوك الصحي في المجتمع الجزائري المنعقد يومي 21-22 افريل 2014، قسم علم الاجتماع، جامعة الطارف
11. نفس المرجع
12. مباركة بلحسن:الفتاة الحسانية وطقس الزفاف: مقاربة أنثروبولوجية، مجلة إضافات، العدد 29-30 شتاء ربيع 2015، على:

www.caus.org.lb/PDF/EmagazineArticles/socio_29-30mbaraka_blhassan.pdf

13. زهية بن عبد الله: الجمال والجسد الأنثوي: التمثلات والممارسات، على:

ttps://insaniyat.revues.org/6615

14. قنيفة نورة: المرأة والعنف في المجتمع الجزائري، دراسة ميدانية بمصلحة الطب الشرعي بقسنطينة، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم علم الإجتماع، جامعة قسنطينة، 2010

15. عبد الكريم بزاز: علم إجتماع بيار بورديو، دراسة لنيل شهادة دكتوراه علوم، قسم علم الإجتماع والديمغرافيا، جامعة منتوري قسنطينة، 2006-2007، ص 158– 159

16. عبد الهادي أعراب: قراءة في مؤلف بيار بورديو الهيمنة الذكورية،مقال علمي منشور على:

www.mominoun.com/articles

17. الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، نفس المرجع السابق ذكره

18. للمزيد أنظر:

Camille Lacoste-Dujardin : *Des mères contre les femmes. Maternité et patriarcat au Maghreb,*nouv. Ed la Decouverte,Paris, 1996

19. سمية نعمان جسوس: بلا حشومة الجنسانية النسائية في المغرب، ترجمة عبد الرحيم حزل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2003

20. مريم بوزيد سبابو: البحث والأنثى قراءة في تشكل المعرفة الأنثروبولوجية، في النساء والمعرفة في العالم العربي المعاصر، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ والتاريخ علم الانسان والتاريخ، 2011، ص232-233

21. للمزيد أنظر: مريم بوزيد سبابو: تن كيل سبّيبة: في معنى شعيرة عاشوراء بواحة جانتكز الوطني للبحوث في ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2012.